تأملات فى الأدب والحياة

للأستاذ إسماعيل مظهر

الشعر والمادة

إن بين كثير من الأمور النفسية والعاطفية ، وبين كثير من الماديات تقابلاً ، حتى يخيل إليك أن الأشياء النفسية والعاطفية كأنها ماديات تحولت أشياء معنوية ، أو كأن الماديات أشياء معنوية استحالت جمادات

من ذلك أن بين الشعر والمادة تطابقاً من حيث أن لكل منهما « ماهية » لم يتوصل العلماء إلى معرفتها فى المادة ، ولم يتوصل الأدباء والنقاد إلى معرفتها فى الشعر . فإذا قيل مثلاً إن الأشياء الظاهرة فى المادة إنما هى أعراض ينبغى أن يحملها جوهر فيه تكمن الماهية ، فكذلك يستطاع أن يقال فى الشعر إن كل الصفات التي يقول الأدباء والنقاد إن من الواجب أن تتوفر فى الشعر حتى يحكم عليه بأنه جيد ، إنما هى أعراض يحملها جوهر فيه تكمن ماهية الشعر

فإذا كان اللون والحجم والوزن والطول والعرض والثقل وما إلى ذلك جميعها أعراض ينبغى لكى تظهر لحواسنا أن تكون محمولة فى جوهر ذى ماهية خاصة ؛ وإذا كان الوزن والقافية واللفظ والصناعة والمعنى والخيال وما إلى ذلك جميعها أعراض يحملها جوهر ، ما تلك إلا تعبيرات عنه ودلالات عليه ، إذن فأين المادة وأين الشعر ؟

أليس فى مثل هذا التقابل بين الماديات والعاطفيات النفسية ، مواضع للتأمل ومواطن للاستبصار ؟

شاعرية الألفاظ

ما أقوى العلاقة القائمة بين الشعر وبين الحالات النفسية ! وعندى أن التأثر النفسى بالشعر أقوى الأسباب التى تدعونا إلى نقد الشعر . ذلك بأن المعايير النقدية التى يخضع الشعر لسلطانها ، على اختلافها وتباينها ، تتضاءل جميعاً إذا قيست بالمعيار النفسى . على أن للمعيار النفسى فى نقد الشعر عوامل كثيرة ، منها الموسيقى المستمدة من القافية والروى ، ومنها قوة الخيال ، ومنها الاتجاه الذى يتوجه فيه الشعر إلى غير ذلك ، وجميعها عوامل تؤثر فى المعيار النفسى فى نقد الشعر . غير أن أقوى هذه العوامل تأثيراً معيار النقد النفسى للشعر ، إنما ينحصر فى شاعرية الألفاظ

فقد نسمع من كثير من النقاد أن هذا الشاعر بارد الأنفاس ، وأن ذاك غير ماهر فى اختيار الألفاظ ، من غير أن تحدد المعنى المقصود من أمثال تلك العبارتين تحديداً يرضاه المنطق وتقره طبيعة العقل ، إذ هى ترمي دائماً إلى تحديد معنى لكل لفظ مفرد ، وإلى تحديد معنى لكل عبارة تكونت من ألفاظ . فإذا أردنا أن نجدد ما يقصد من عبارات تجرى بها فى العادة أقلام النقاد والكتاب ، وجب أن نرجع بها إلى أصولها النفسية ، حتى نستطيع أن نفسرها تفسيراً منطقياً يقبله العقل وتقره ما فينا من طبيعة الميل إلى تحديد كل المعانى التى تتخذ الألفاظ والعبارات وسيلة إلى التعبير عنها

والواقع إننا نقول إن شاعراً بارد الأنفاس ، وإن آخر غير ماهر فى اختيار الألفاظ ، إنما نعبر بهذا عن حقائق نفسية ، تنزل من أنفسنا منزلة أبعد الأشياء اندساساً فى أغوار الفطرة. فقد نعلم أن من الحقائق النفسية ما دعاه النفسيون: « تداعى الأفكار » . فان اللفظ الجميل المعنى يدعو إلى الفكر دائماً كل المعانى الجميلة التى تلابسه أو تقاربه ، ولفظاً قبيحاً أو محزناً يدعو إلى الفكر كل المعاني التى تدانيه أو تمت إليه بسبب من الأسباب . مثل ذلك إذا قلت: « الشاطىء المخضوضر » دعت هذه العبارة إلى ذهنك كل المعانى الجميلة التى تلابسها . فالنهر المنساب والماء الصافى والظل الوارف وصوادح الطير والرضا النفسى والأخذة الروحية ، كل هذه المعاني توانيك غير مختار لمجرد أن العبارة الأولى قد حملها وعيك فدعا معها جميع المعانى التى ترتبط بها وجميع الملابسات المرحة الجميلة التى تلازم الشاطىء المخضوضر . وإذا قلت القبر الصامت — أو — « الصحراء المجدبة » دعت هذه العبارة إلى وعيك جميع المعانى المحزنة التى تلابس القبر والصحراء المحزونة الصماء.

هذه الحقيقة النفسية لها فى نقد الشعر أعظم الأثر . فان لفظاً جميل المعنى حسن الملابسات يدعو إلى الذهن شتى المعانى الأخاذة

الجذابة ، إن ورد فى سياق الشعر أحدث فى النفس شعوراً بالرضى والجمال وزاد إلى موسيقى الشعر القائمة على جمال الوزن والقافية ، موسيقى نفسية تزيد الشعر تأثيراً فى النفس ، وتفتق الخيال ، فيشرف الوعى من خلال ذلك اللفظ على آفاق من الجمال اللامتناهى تزيد من قيمة الشعر بقدر ما يكون لألفاظه من أثر فى استدعاء ألوان الجمال او التأمل أو العِبرة أو الحكمة إلى غير ذلك . وعكس هذا تماماً ما يحدثه لفظ ردىء الملابسات فاسد المعنى . وهذا ولا شك ما يقصد النقاد إذ يقولون بأن الألفاظ شاعرية . على أن شاعرية الألفاظ إنما يحددها دائماً استعمال اللفظ فى حيث ينبغى أن يستعمل فيكون مطابقاً دائماً لمقتضى الحال .

الشرق والثورة

حدثنى صديق ممن تجمعنى به ذكريات عزيزة : ذكريات الثورة المصرية ، عند ما كانت أنفاسنا حارة كاللهب المضطرم ، وكانت أرواحنا مشبوبة كاللظى المتأجج . لهيب الشباب ولظى الفتوة . لم يكن عهد الكهولة قد أصاب شيئاً من تأملنا أو حفزنا بعد إلى اللجوء إلى قواعد المرجحات العقلية التى هى عندنا اليوم أشبه شىء بقانون المرجحات الرياضية ، فاما أن نرضيها واما أن نعتقد اننا على غير صواب ، وإننا إلى الشطط أقرب . حدثنى ذلك الصديق عن الشباب وعن أيام الجهاد المستمر والسعى المتجدد فى سبيل إذكاء روح الثورة فى نفس الجماهير ، وذكرنى بما كان لنا من مواقف نعجب الآن كيف خرجنا منها وفينا نفس يردد أو عرق ينبض . كيف لم يحصدنا الرصاص . وكيف لم تسل أنفسنا على شفرات السيوف ؟ كيف هزأنا بالموت غير مقدرين أن الموت كان أقرب إلينا من حبل الوريد أشهراً طوالاً بل أعواماً ، وكيف خلصنا من جميع هذا بأرواحنا سليمة وجسومنا لم يصبها كلمٌ واحد!

قلت له فى خلال الحديث ما أشهى تلك الأيام ! فان للمخاطرة بالروح جمالاً لا يدركه الانسان إلا بعد أن يفوز بالسلامة . ذلك جمال أشبهه بجمال الفقر الذى لا يدركه الانسان إلا بعد أن يلوذ بالغنى . ولعل الأمر على عكس ما يخيل إلينا ؛ ولعل الواقع أن المخاطرة والنقد ليس فيهما من جمال ، وأن ما نستشعر من جمال فيهما بعد الفرار من آصارهما قد يكون جمال الذكريات الماضيات إذ تحيى فى النفس جزءاً من ماضيها ، وتطبعها بطابع قديم كاد يبلى على الأيام .

قلت لصديق من لنا بمثل تلك الأيام ؟

قال الصديق : نعم نحن فى احتياج إلى ثورة . إلى ثورة طاحنة تمضى بكل ما يقف فى طريقها ، وتأتى على كل ما يقاومها ؛ ثورة شيطانية لا عقل فيها ؛ ثورة مبرأة من الرشاد والحب والنهى . ثورة طائشة مجتاحة تأكل الحرث والنسل ؛ ولكنها ثورة لا تنال من الجسوم ولا من الحطام ؛ ثورة لا شأن لها بنظام قائم ولا بحكومة ولا بجيش ولا بأسطول ؛ ثورة منزهة عن السيف والدفع ، وعن المدية والخنجر ؛ ثورة لا يقوم بها جمهور من الناس ولا جماعات منهم ؛ بل ثورة فردية يشنها كل فرد منا على نفسه ؛ ثورة نفسية يتسلح فيها كل فرد منا بالارادة ويروح يهدم من أخلاقه ومن ميوله ومن نزعاته التى كونها فينا تاريخنا القديم ؛ ثورة تقتل فيها الارادة حبنا للسلامة وتواكلنا على الأقدار وصمتنا عن الحق والحق مهضوم مأكول ، كأنما قد أصبحنا جميعاً شياطين خرساً ، والساكت عن الحق شيطان أخرس ؛ ثورة تحطم مُثُلنا الأخلاقية القديمة ، لتتبدل بها مُثلاً عليا من تلك المثل التى قادت أوائلنا بجيوشهم ومدنيتهم وعلومهم من شاطىء بحر الظلمات إلى جوف الصين

وكان صديقى يتكلم متهدّج الصوت منفعل النفس ثائر الوجدان . فلما فرغ من حديثه ، شملنا صمت عميق ظل يسود مجلسنا حتى افترقنا لم يجر لساننا بكلمة واحدة

الطغرائى الشاعر

هو من أفذاذ الشعراء ، ومن أهل البيان الذين يشار إليهم بالبنان . أنكره أهل زمانه على القاعدة السائدة فى هذه الدنيا . وليس فى ذلك عجب ؛ ذلك بأن نكران الأفذاذ فى زمانهم سنة أهل الشرق منذ أقدم عصورهم . وهذا الطغرائى على جلالة قدره يقول :

مالى وللحاسدين؟ لا برحت ... تذُوب أكبادهم وتنفطر
يغتابنى عند غيبتى نفرٌ ... جباههم إن حضرت تتعفرُ
ألسنة فى إساءتى ذُلقٌ ... يقتادها من مهابتى حصر
أمام عنهم ملء الجفون إذا ... أثارهم فى المضاجع الأبر
يكفيهم ما بهم إذا نظروا ... إلىّ ملء العيون لا نظروا
تغيظهم رتبتى ويكمدهم ... جاهى فتسوى عليهم كدَر

فنعمة الله وهى سابغة عندي من الحاسدين تنتصر
يعجبنى أنهم إذا كثروا قلّوا غناء وإن هم كثروا

وليس من عجب فى أن يحقد جماعة على الطغرائى في زمانه ، وليس من عجب في أن يقول فيهم الطغرائى هذه الأبيات وأكثر منها مما يتضمن ديوانه . ولكن العجب فى أن يُهمل الطغرائى فى زماننا فلا يتناوله كاتب بنقد ولا يذكره أديب ببحث، كأن هذا الشاعر العظيم من مطويات الأدب ، تلك التى تطوى فلا تنشر ، وتنسى فلا تذكر . ذلك فى حين أن التأمل فى شعر هذا الرجل الفذ يدرك فيه سراً قلما تقع عليه فى غيره من الشعراء : لا فى شعراء عصره ولا فى الشعراء الذين تقدموه ، ولا فى الشعراء الذين تلوه. وعندى أن هذا السر لا يشاركه فيه إلا شاعر واحد هو أبو العلاء المعرى . أما ذلك السر فهو الجمع بين قوة الشاعرية ودقة الاحساس وصادق الوجدان وبين هدوء الطبع . أما إن ذلك سر من أسرار العظمة فى الطغرائى ، بل لا نبالغ إذا قلنا إنه سر عظمته ، فذلك بأن الشعر عاطفة وخيال وحركة نفسية جياشة دافقة سيالة ، فاذا حكم هذه الصفات هدوء نفس طبيعى ، صفا الشعر ورق واتساب انسياب الجدول المترقرق الهادئ ، ولكنه فى ترقرقه وهدوئه حادٌّ كالسيف قاطع كالفأس الباترة المحدودة

وأبو العلاء المعرى إن شارك الطغرائى هذا السر ، فلا شك فى أنه فى نفسية الطغرائى أرس وأذهب فى الوجدان . فان أبا العلاء شاعر حكيم بطبعه متشائم بفطرته . حمل على المرأة وطني على الانسانية ، حتى لقد أراد أن يهدم كل قائم من غير أن يعرف كيف يقيم غيره ، وأن يدك كل أساس عملى فى الحياة من غير أن يرسم للحياة طريقاً جديداً . ذلك على العكس من الطغرائى فانه عاش مع المرأة واندفع فى غمرات الحياة وشرب من أفاويقها حلوة ومرة ، فكان من صميم أهل الدنيا . فاذا لازم أبا العلاء شيء من هدوء الطبع ظهر أثره فى شعره فذلك طبيعى بمقتضى النشأة والاتجاه الفكرى . أما أن يلازم الطغرائى ذلك الهدوء وتحكمه تلك الطمأنينة ، وهو بعد منمور فى الحياة محب لها هائم بمباهجها لَمّاحٌ لما فيها من مغريات ومفاتن ، فذلك سر من العظمة لا تألفه فى الشعراء

ولقد يظهر أثر هذا السر في مرثياته ، وهي أبعد الأشياء عن أن يلزم فيها شاعر هدوء نفسه وطبعه فلا يغلب عليه خيال جامح إلى غايات من الشعر يسبح من خلالها الشاعر فى عالم من الخيال البعيد المعلق بآفاق الوهم النفسية . وله فى الرثاء مقطوعة رثى بها عزيزة عليه ، تلمح من خلالها مقدار ما لاقى فى فراقها من لوعة عميقة الأثر بالغة الخطر ، ولكنك تلمح فيها أيضاً ذلك الهدوء النفسى الذى يبلغ من قرارة نفسك مبلغاً لا تبلغه ثورة الشعر :

ولم أنسها والموت يقبض كفها ويبسطها والعين ترنو وتطرق
وقد دمعت أجفانها فوق خدها جنى نرجس فيه الندى يترقرق
وحلّ من القدور ما كنت أتّقى وحُمّ من المحذور ما كنت أفرق
وقيل فراق لا تلاق بعده ولا زاد إلا حسرة وتحرق
فلو أن نفساً قبل محتوم يومها
قضت حسرات كانت الروح تزهق
هلال ثوى من قبل أن تم نوره وغصن ذوى فينانه وهو مورق
فواعجبا أنّي أحم اجتماعنا وياحسرتى من أين حلّ التفرق
أحنُّ إليها إن تراخى مزارها وأبكى عليها إن تدانى وأشهق
وأبلس حتى ما أبين كأنما تدور بى الأرض الفضاء وأسمق
وألصقها طوراً بصدرى فأشتفى وأمسحها حيناً بكفى فتمبق
وما زرتها إلا توهمت أنها بثوبى من وجدى بها تتعلق
وأحسبها والحجب بينى وبينها تعى من وراء الترب قولى فتنطق
وأشعر قلبى اليأس عنها تصبرا فيرجع مرتاباً به لا يصدق

هذا شعر صادق الدلالة على الحقائق التي أحاطت بالشاعر وعلى الاحساسات التى اختلجت بها نفسه . قد تكون فيه لمحات من شعر الرثاء فى شعر غيره من الشعراء ؛ ولكن فيه إلى جانب هذا سر جديد عليك . ذلك ما تدرك من هدوء هذه النفس الثائرة كأنما ترى أرضاً انبسطت ونما فوقها العشب وغشتها الأزاهير ، وأنت تسمع من تحتها دوى البراكين وهمهمة الزلازل تغلى فى باطنها

ولقد حاولت أن أطلق على هذه الظاهرة العجيبة فى شعر الطغرائى اسماً أميزها به ، فلم أجد اسماً أطلقه عليها أجدر بها من أن ندعو « الواقعية الشعرية » فانها والحق يقال أقرب الأشياء فهماً مما ندعوه «الواقعية فى الفلسفة» على أن المقارنة بين واقعية الشعر وواقعية الفلسفة يحتاج إلى فراغ ليس هذا مكانه ، أما إذا

أردت أن تقف على طرف مما ذكرت فاقرأ له المقطوعة الآتية :

أقول لنِـضْوي وهو من شجنى خلو
حنانيك قد أدميت كلى يانضو

تعالى أقاسمك الهموم لتعلمى بأنك مما تشتكى كبدى خلو
تريدين مرعى الريف والبدو أبتني ومايستوى الريف العراق والبدو
هناك نسيم الريح مثلك لاغبٌ ومثلى ماء المزن مورده صَفْو
ومحجوبة لو هبت الريح أرفلت إليها الغياري بالعوالى ولم يـلْووا
صبوت إليها وهى ممنوعة الحمى فحتى مَ أصبو نحو من لاله نحو
هو ى ليس يسلى القرب عنه ولا النَّوَى

وشجو قديم ليس يشبهه شجو
فأسر ولافك، ووجد ولاأسىً وسقم ولا برء ، وسكر ولاصحو
عناء معنى وهو عندى راحة وسم زعاف طعمه فى فمى حلو
ولولا الهوى ما شاقنى لمح بارق ولا هدنى شجو ولا هزنى شدو

إن فى هذا الشعر لثورة يخيم عليها هدوء نفسى قلما تأنسه فى شاعر غيره . وعندى أن هذه الصفة لم تتجلَّ فى شعر الطفرائى بقدر ما تجلت فى لاميته المعروفة ، وإن لنا لعودة إليها نحاول فيها هذا الشاعر الكبير على ضوء هـذه الحقيقة الملموسة فى شعره . ولقد يحفزنا إلى درس الطغرائى أنه شاعر فسيح الجوانب مديد الغايات وفي شعره تعلق بأسباب الأدب العالى ، وما أحوجنا إلى هذه الأسباب

اسماعيل مظهر

اطلب مؤلفات
الأستاذ النشاشيبي
وكتابه
الإسلام الصحيح
من مكتبة الوفد ، شارع الفلكى (باب اللوق)
ومن المكتبات العربية المشهورة

حـــواء

ديوان شعر طريف فى الغزل العرفانى من نظم الأستاذ الحومانى تحت الطبع ، تحمل الرسالة منه إلى قرائها عدة نماذج قبل صدوره

ربَّ حواء !

ربَّ حواء ! حين صوّرتَ حوّا ءكَ هل كان قبلها تصويرُ ؟؟
والشعورَ اللاتى نشرتَ عليها هل طوى الليلَ قبلهن شعور؟؟
والعيون اللاتى شققتَ لها هل كان من قبلها عيونٌ حورُ ؟؟
أوَهل بعدها يشع على الأحـــداقِ من عالَم الملائك نورُ ؟؟
وتُرينا كثغرها وكعينيـــها السموات أعينٌ وثغورُ ؟؟
كبُرت أن تكون قبلاً وبعداً والذى خصها بذاك كبيرُ ؟
هى بيت القصيد من شعرك المنـــظوم والكونُ شعرك المنثور

انبئينى

أنبئينى عمـــا يجول بعينيـــكِ وما لا يجول من أسرار
لا بعينى الملأى من النور أشرفـــتُ على كنهها ولا أفكارى
كلما نحتِ الحقيقـــة فى أذ نىّ أخلدتُ للخيال السارى
وتسنمتُ ذِرْوة الأفق الأعـــلى إلى كل كوكب سيّار
فأرتنى عيناىَ أنك فى آ فاقها بعض هـذه الأقمار
وعلى الأرض بعض هذى التماثيـــلِ من الناس أو من الأحجار
وأرتنى عينالكِ أنىَ والكو نَ غريقانِ منكِ فى تيّار

الحومانى